المحاضرة الثانية: الأدب المغاربي المكتوب باللغة الأجنبية و المشروعية التاريخية

يرى بعض الدارسين أنّ قرب الأدب المغاربي الحديث جغرافيا من بلدان أوروبا و التفاعل الثقافي الذي حدث بين المثقفين المغاربة و الثقافة الأوروبية و التأثر الشديد باللغة الفرنسية و الإعجاب بها نتيجة الظرف التاريخي الذي أوصل الأدب المغاربي إلى مصاف العالمية اليوم و هذا الانتشار السريع و الواسع الذي لقيه اليوم عربيا و أوروبيا و عالميا كان نتيجة الكتابة باللغة الفرنسية.

الأسباب التي حالت دون نهضة الأدب المغاربي قبل النصف الثاني من ق 20م

تُطرح جملة من الأسباب التي حالت دون تحقيق هذا الأمر أبرزها بعد المسافة بين المشرق و المغرب العربي في ذلك الوقت، و ضعف وسائل الاتّصال و كذلك محدوديتها في كثير من الأحيان و قلة المنشورات المتعلقة بالأدب المغاربي و حوله. مثل هذه العوامل كان لها التأثير المباشر في ضعف التواصل و " التثاقف" و كل ما يتعلق بعوامل التطور الثقافي و الأدبي ضمن الأمة الواحدة من حيث اللغة و الدين و التراث و التاريخ المشترك...

هي جميعها أسباب أضعفت تطور الأدب المغاربي إعلاميا و حدّت من شهرته و انتشاره.

وظيفة الأدب المغاربي المكتوب باللغة الأجنبية

إن الارتباط العضوي بين الأدب المغاربي الحديث و واقع المجتمعات المغاربية هو في الأساس التفسير الطبيعي لنتيجة التطور الذي يعرفه هذا الأدب اليوم، و بحكم السعي المستميت للاستعمار في سبيل الإبقاء على السيطرة سعى لإيجاد نخبة ثقافية تنتج أدبا ينطق بواقع تلك البلدان المستعمرة، و فعلا فقد وجدت فئة من الكتاب تعاطفت مع الأهالي في مستعمرات المغرب العربي و دافعت أحيانا عن بعض قضاياهم، لأنها اقتنعت فيما بدا من توجه هذه الفئة، و قد تمكن المحتلون من بسط سيطرتهم الكاملة على مقدرات البلد و اطمأنوا إلى تفوقهم الساحق على الأهالي بأنه لا بد من منح فرصة لهؤلاء الأهالي لكي يسهموا بدور ما في حياة المستعمرة، حتى و لو كان دورا هامشيا و السماح لكل من يبدي منهم الاستعداد بالاندماج في المجتمع الاستيطاني الجديد، و هذا ما برز على الخصوص في كتابات "ألبير تروفيموس" و "ستيفان راوول" و "إيزابيل ايبرهاردت" و "ماكسيميليان هيلر" و "لوي لوكوك" الذين اهتموا بتصوير العادات و التقاليد و الاحتفالات الدينية عند لمسلمين ولدى اليهود، و كذلك اعتنوا بتصوير حياة المستوطنين اليومية في القرى و في المدن الداخلية

الصغيرة و نقل جانب من علاقاتهم مع الأهالي و مع بعضهم البعض و عالجوا بعض المسائل التي تمس بصفة عامة المجتمع الاستيطاني المتعدد الأعراق و الديانات و أولوا اهتماما خاصا بمسألة الزواج بين مختلف الطوائف و لاسيما بين المسلمين و المسيحيين من جهة، و بين اليهود و المسيحيين من جهة أخرى.

ويعود سبب التركيز على مثل هذه المسائل الحساسة محاولة إيجاد نوع من التناغم و الانسجام بين مختلف الطوائف الدينية التي تعيش ضمن مجتمع واحد، و كذا السعي إلى إيجاد نوع من الإثارة و التشويق في طرق مثل هذه المواضيع اما فيها من صعاب و حساسيات من شأنها توليد رؤية درامية فنية. و عليه يبقى الأدب دائما محافظا على خصوصية تطوره على الرغم من الارتباط العضوي القائم بينه و بين التحولات التاريخية التي هي نتاج لتحولات البنية التحتية. يكتسب الأدب المغاربي الحديث من الجانب الفني و الثقافي خصوصية التعبير عن أدب منطقة جغرافية معينة لها هي الأخرى خصوصياتها التاريخية و الثقافية و الأنثروبولوجية.

إنّ الأدب المغاربي كغيره من الآداب العالمية الكبرى ينطلق من واقعه الاجتماعي و سياقه التاريخي لينزاح عنهما و يُنتج خطابه الموازي للواقع، و يدخل في علاقات معه من خلال إشراك المتلقي في العملية الإبداعية، مما

خلق هذا الأدب و خصوصياته الجمالية المميزة و رؤيته للعالم و القضايا الكبرى التي تشغل بال الإنسان.

إنّ التنوع الذي يزخر به الأدب المغاربي قلما نجد نظيره في الآداب العالمية الأخرى، و هو التنوع الذي من شأنه أن يشكل غنى و ثراءً للأدب العربي المعاصر.

المشروعية التاريخية للأدب المغاربي

يكتسب الأدب المغاربي الحديث مشروعيته التاريخية من باب مقاومته المستمرة الاستئصال و الاستلاب الثقافي، التي دأب الاستعمار على انتهاجها، فقد دأب الاستعمار الفرنسي على سلخ المغرب العربي من ثوابته الحضارية، و عمل كثيرا على فصله عن المشرق وربطه مباشرة بالحضارة الغربية – الفرنسية منها خاصة- الشيء الذي أثّر سلبا على كل المحاولات الجادة في التواصل و الاتّصال.

و يذهب بعض الباحثين إلى مؤاخذة المثقفين المغاربة لرفضهم تقبل الحداثة عند بدايات وصولها إلى العالم العربي – إذا كان بالإمكان التسليم بأنّ الحداثة متفرعة إلى حداثات متجددة و لا يمكن الاعتقاد بحملة واحدة على العالم العربي هي تلك التي كانت مع حملة نابوليون بونابرت على مصر- و بقي المثقفون المغاربة يعتقدون بأنّ الحداثة هي نتاج استعماري هدفه

الأساسي استئصال الثقافة العربية الإسلامية، كان هذا في البداية لكن مع مرور الوقت تغيرت المواقف، و المثقفون المغاربة يسعون جاهدين في الإسهام في رسم مسار الحداثة العالمية. و قد أسهمت ترجماتهم الكثيرة عن اللغة الفرنسية في التعريف بأكبر الأعمال النقدية و الإبداعية العالمية.

إنّ المطلع على الأدب المغاربي، لا سيّما الجزائري منه يسجل هذه المعادلة المحسوسة و المتعلقة بالمحافظة على طبيعة الزمان و المكان و الشخصيات، كما يدخل في ملاحظة خاصية التجريب منذ العتبات الأولى لمطالعة النصوص و يشرع في اكتشاف مواضع الحداثة بكل ما فيها من تجدد للطاقات اللغوية و الأساليب الشعرية و السردية و استعاب التراث و التاريخ و توظيف التناص بشكل يتجاوز الكثير من الصور الفنية و الجمالية المألوفة، أدب تتحدّث المجتمعات من خلاله، ليس من منظور النظريات الاجتماعية بل من منظور النماذج الإنسانية الموظفة، فتلتحم الأفكار و الخيالات بالواقع، و تتعارض الرؤى و تتداخل